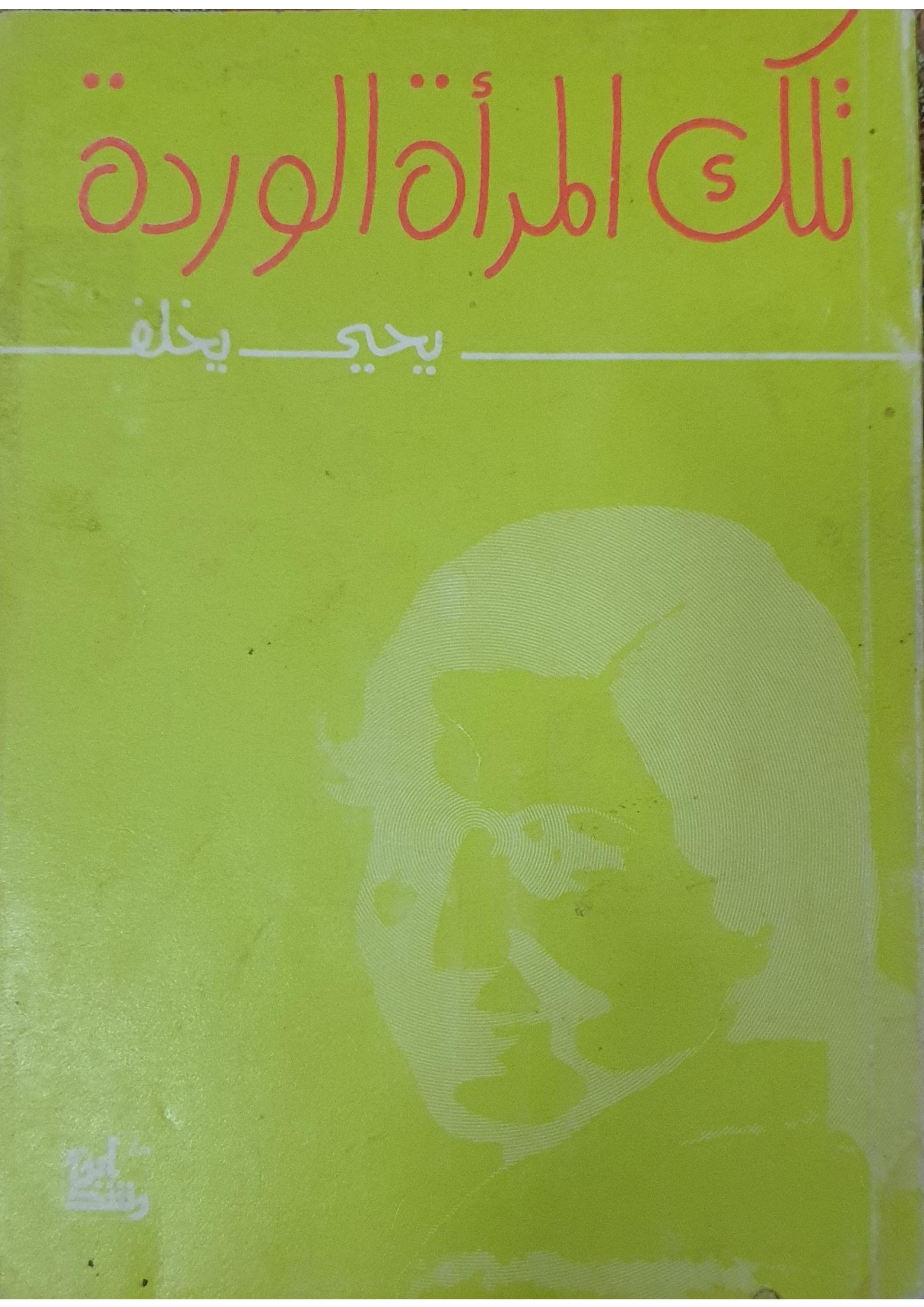


تلك المرأة الوردة
يحيى يخلف

هدية من
السيد اسماعيل الجبلي
في ٨/ربيع الآخر/١٤٤٤هـ
٢٠٢٢/١١/٠٣م

م. سرمد حاتم شكر

تلك المرأة الوردة

صمم الغلاف عماد حيدر

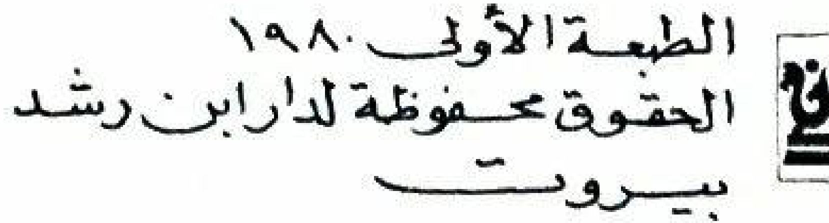
يحيى يخلف

تلك المرأة الوردة

دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت ـ لبنان ـ كورنيش المزرعة ـ بناية موسى ـ ت ٣٠٠٣١١




الطبعة الأولى ١٩٨٠

بيروت

مقام الكلمة وكرامة الإنسان

بعض الأعمال تتلاشى من الذاكرة عند انتهاء قراءتها ، بل ربما تتلاشى في لحظة القراءة عينها ، لأنها في كتابتها لم تلمس الا ما هو نافل ، ولم تكتب الا عن هامشي الحياة ٠

« تلك المرأة الوردة » ، قصة قصيرة ، تنتمي الى « الأعمال الأخرى » ٠ تتناءى عن ما هو عارض ، وتدخل في قلب الحياة ، فترسم واقعا ، وتعلن موقفا ، وتدافع عن الانسان والحقيقة ٠ وتبتعد أيضا عن هامشي القول وعارض الكتابة،

فتنتج فنا ، وتجعل القراءة متعة ،وتدفع بالقارىء الى حدود الفرح •

منذ السطور الأولى ، نعيش قصة « المرأة الوردة » ، أو نعيش معها • ندخل معها دوائر التعب اليومي ، والفرح البسيط ، والمسرات المتواضعة ، ونتحالف معها برضى حين تنشب أظافرها في وجه كل تاجر بليد • وعندما تنتهي السطور ، وتذهب « المرأة الوردة » في عوالمها ، فانها تبقى في الذاكرة كطيف عزيز أو كذكرى جميلة لصديق ورفيق وحليف •

عند انتهاء القراءة ، يسائل القارىء ذاته ويستعيد « المرأة ـ الحياة » من جديد ، ويبحث عن مصدر ذلك الفرح الذي جادت به عليه الحكاية • وبعد أن يعيش في الحكاية ـ الفرح يتساءل مدهوشا : كيف تنتج الحكاية فرحا وهي ترسم شرطا اجتماعيا معمورا بالفقر والفاقة والوجوه الذابلة ؟• في البحث عن الاجابة يستعير جوابا

« معروفا » : تلغي المتعة الجمالية تساؤلات الفكر · لكنه يدرك بعد حين أن جمال السطور لم يكن لعبة لغوية أو عناقا للكلمات · لذلك فانه يهجر معروف الاجابة ، ويفتش عن اجابته ، كي يدرك من جديد أن فرح الحكايــة يقوم في نبض الحياة · في ايقاع الكتابة ·

ان جمالية قصة يحيى يخلف لا تكمن في قولها المباشر ، أو كلماتهــا ، أو موقفهــا الاجتماعــي ونزوعاتها الانسانية فحسب ، بــل تكمن بشكــل جوهري في جملة العلاقات الفنية التي تمسك بحركة القصة ، وتوحد بين المعنــى والمبنى ، والصريــح والمضمر ، والقول والأثر ، أي أن جماليتها قائمة في بنيتها الداخلية ونمط كتابتها · وهنا ، أي في الحكاية ، يصبح المضمر صريحا ، والكتابة فعلا ، والقراءة فرحا ، والنص سؤالا أو أسئلة توحــد بين الكاتب والقارىء والواقع ·

اذا كان الموقف من الحياة يتجلى في أثر

الحكاية الأيديولوجي ، فان الموقف من الفن يستعلن في تشكيل الحكاية وصياغتها، أي أن نبض الحياة يحايث ايقاع الفن ويتماثل به • وفي « تلك المرأة الوردة »، يكسر « يحيى » الحدود بين الفن والحياة، ويوحدهما في تركيب جميل يدافع عن الحياة ، ويذود عن مقام الفن •

يبدأ الفعل من الذاكرة ، أو ، يبدأ من ذاكرة الواقع • وبدون أن يغترب عن بدايته ينزل الى حقل الحياة ويلتقي ببساطة الأشياء، وتعانق الذاكرة من جديد « انتصار » في غدّوها ورواحها ، وتمسد عيون الولد البسيط ، ثم تحتضنهما معا لتشير الى هذا العالم القاسي المحكوم بالقمع والعسف والاستغلال • وبين الذاكرة والحياة والناس البسطاء ، تقف تينة عجوز ووليد جديد • ويستمر الفعل حتى تخبرنا قصة « يحيى يخلف » أن الحياة تتجدد في الصراع ، وأن جديد الاشياء لا يرث

القديم الا تصاعدا ، أي يرثه في عملية صراع مستمرة تشرق مع الشمس ولا تسافر في الغروب •

تستمر « انتصار » في حلم القارىء وفي ضمير الحياة • فتاة حالمة تستعيدها من جديد ذاكرة حالمة أخرى ، حلم يكتب فوق حلم ، حتى تستوي الأشياء ويولد عالم بلا استغلال ، وحتى تستمر تلك التينة العجوز في نبضها تحت شمس قاسية تارة وواهنة تارة أخرى •

طفل من أطفال بساط الفقراء ، يأكل بسيط الأغذية ، وينام في رخيص الأمكنة ، يعيش تعبه اليومي وفقره المقيم ، ويضيع في « انتصار » تلك المرأة الوردة • تمثل له « انتصار » هنا ، فضاء جديدا يلقي عليه أشواقه ، ويتسامى فيه عن تعبه اليومي ، ويستلهم منه فرحا لا يعثر عليه في شروط حياته العادية • لذلك فان علاقته بها تأخذ طابع التقديس ، وتأخذ رؤيتها صباح مساء في عينيه شكل الهجرة المستمرة من البؤس الى السعادة ، أو

شكل الرحلة المقدسة التي تعطي الحياة مذاقا جميلا• « انتصار » الولد البسيط كيان متعدد الدلالات • انها حامل أشواق ، ورمز متعال ؛ ومرآة يومية يرى فيها حاضره ومستقبله ، ويرى فيها رقص الحياة الذي لا يستوي الا بانشاب الأظافر •

تمثل علاقة الولد بالمرأة ـ في قصة يحيى ـ مسار التحرر عن طريق الحب ، عن طريق تلك العلاقة الحميمية التي تجعل الفقير يتجاوز حصاره اليومي ، ويجد في الآخر ملاذا ، وقبضة دفء ، وشريكا في المصير ، وحليفا في المسار •

ان قصة « تلك المرأة الوردة » تجعلنا نستعيد قولا معروفا وجميلا : كل أدب جميل يدافع عن الحقيقة • وقصة « يحيى » تقول الأشياء في بساطتها ، تحتضن الجمال والحقيقة ، وترفع راية الكرامة الانسانية ، وتدافع عن شرفاء مجهولين ، يساهمون في صنع الثورة يوميا بصمت وتواضع •

و « المرأة الوردة » هي رمز صانع الثورة ، الذي يعبر الحياة صادقا وشريفا ، فلا نراه على المسرح ، ولا نلقاه في الحفلات الأنيقة ، ولا نبصر صورته على أغلفة المجلات الملونة ٠

فيصل دراج

تلــك المرأة الــوردة

قصة : يحيى يخلف

في الصباح انتظرتها • كنت أحمل لهـا خبرا سارا • جلست على حجر في الطريق أنتظر بلهفة • جاءت بعد طول انتظار وصافحتني • أحسست أنني أمسك بعصفور يتنفس في يــدي : ـ لماذا تجلس هنا ؟ قلت لها : كنت أنتظرك •• أريد أن أقول لك خبرا سارا •

كنا قد اشتغلنا معا في ذلك الصيف الشاســع ، الطويل ، ذي الأظافر الذي ينتمي الى فئة الصقور الجارحة • اشتغلنا معا ، في المعمل الذي ينتج راحة

الحلقوم • كنت طفلا مهانا ، مكدودا ، في أعماقه تجاعيد رجل يناهز الستين • وكانت امرأة •• صبية • لها وجه رائق • وعينان صامتتان • ويغيب شعرها دائما وراء منديل أحمر يضيء وجهها ، ويتفح خديها • وفي المعمل الذي كنا نشتغل فيه كان العمل أمام الفرن فوق طاقتنا ولا يقوى عليه في ذلك الصيف الذي له مذاق الفلفل الحار الا الذين تخرجوا من دورة الكمال الجسماني في مركز الشباب بالمخيم • لذلك فان النحفاء من أمثالي ، الذين لا يأكلون سوى الباذنجان المطبوخ بالبندورة، لا يستطيعون أن يصمدوا أكثر من ساعات •• يسقطون بعدها مغمى عليهم ، ثم لا يعودون الى العمل •

في ذلك الصيف القاسي، رغم الفظاظة والقسوة، خفق قلبي برهافة مثل جناح زغلول يشرع في الطيران لأول مرة • وصار ذلك الفتى الصغير المتزمل في ثيابي يمشي جنبا الى جنب مع انتصار

ـ تلك المرأة الوردة ـ التي تكبره بسنوات حتى نهاية الشارع حيث تتشعب الطريق ، وفي الليل تستيقظ في قلبه ورود الحنون وتنطلق من صدره عصافير البراري ·

وعندما أدار أحدهم ذات مرة على ثيابي شيئا من السكر المطحون الذي يضعونه في علب الراحة ، هجمت انتصار وأخذت تلحس ثيابي ، فهجمت وطوقتها بعفوية وأخذت ألحس ما علق بثيابها · كان هناك فرح وكنا مثل الأطفال العراة الذين يستحمون في بركة ماء · وفي الصباح انتظرتها اذن · كنت أحمل لها خبرا سارا · جاءت بعد طول انتظار · أقبلت وهي تقضم تفاحة :

سألت باهتمام : ما هو الخبر السار ؟

أجبتها : سيقام في بيتنا عرس ·

ـ عرس من ؟

ـ واحدة من قريبات أمي • حفلة عرسها ستكون في بيتنا •

فانتشر في وجهها الفرح •

في اليوم نفسه سرت شائعات أن الرجل الثور (صاحب المعمل الذي نشتغل فيه) قد مات • الموت جعل وجه انتصار يعبس • خففت عنها وقلت لها ان ذلك مجرد اشاعة ، ثم بدأت أحكي من جديد عن حفلة العرس التي ستقام في منزلنا وأحكي لها عن شراب الزبيب والماورد والليموناضة •

وقد دارت مثل مهرة نزقة عدة دورات ثم عادت وسألتني : كيف يمكن للمرء أن يستدل على بيتكم •

جاءت الى العرس ، يرافقها رجل مسن على رأسه طاقية (بيريه) زرقاء • كانت تلبس ثوبا أحمر وتضع على كتفيها شالا من الصوف وتصبغ

شفتيها بالأحمر وتبدو مهياة للسهر والفرح ·

وفي حلبة الرقص كان بعض البنات يرقصن · واحدة رفيعة · والثانية حامل في الشهور الأولى · والثالثة صفراء الوجه وذابلة ·

وكانت المرأة السمينة تنقر بأصابعها ايقاعا شيطانيا صاخبا · وظلت انتصار في حلبة الرقص وحيدة · كنت أحدق بها غير مصدق · وأنتقل الى الوجوه لأرى كيف ينظرون الى قمري ووردتي ·

الا أن ذلك كله لم يطل · اذ أن واحدة من النساء اتهمت انتصار بسرقة أساورها ، فارتسم على وجهها الحزن والانكسار · وخرجت من بيتنا مطرودة ·

وازداد الأمر تعقيدا عندما عاد صاحب المعمل فجأة · جاء ليأخذ بثأره منا · عند ذلك انفجرت الوردة ·· ثم واصلت الانفجار ·

□ □

كنت ذلك الفتى الصغير الذي يمشي من أكواخ التنك صباح كل يوم الى المدينة ، فتنصب أشعة الشمس الحارقة على قرعته ، ويقع في كل عام طريح الفراش بسبب سوء التغذية وفقر الدم ·

كنت ذلك الفتى الصغير · الفج · الذي يلبس صندلا في الصيف والشتاء ، ولا يخرج في الأعياد الى المراجيح لأن ثيابه مرقعة ·

كنت ذلك الذي يقف منكس الرأس في طابور الطلبة الفقراء الذبن ينتظرون مجيء دورهم لشرب كوب الحليب في فرصة الصباح ·

كنت ذلك الطفل · الدمعة · الفج · المنكس الرأس الذي لا يستسيغ حبوب زيت السمك في عيادة الدكتور دهمش · الذي يبيع الجرائد عند الكراج الموحد · أو أكواز الذرة المسلوقة عند أبواب السينما ·

اشتغلت في ذلك الصيف الشاسع الطويل · أعني اشتغلنا معا في ذلك الصيف الشاسع الطويـل ذي الأظافر الذي ينتمي الى فئة الصقور الجارحـة · اشتغلنا معا · في المعمل الذي ينتج راحة الحلقوم · كنت طفلا · وكانت امرأة · صبية · لها وجـه رائق · وعينان صامتتان ويغيب شعرها دائما وراء منديل · · · · اسمهـا انتصـار ـ ليمتلأ قلبهـا بالفرح أينما كانت الآن تلك المرأة الوردة ـ ·

اشتغلنا في ذلك الصيف ذي القرون القاسية في معمل ينتـج راحة الحلقوم · المعمـل من الطراز القديم · ينتج تلك الحلوى بالطرق البدائيـة · وكان علينا أن نعبىء قطع الراحة الصغـيرة ذات الرائحة العطرة والمذاق الحلو في علب الكرتون ذات الأحجام المختلفة ، ثم نرش فوقها مسحوق السكر ·

مدير المعمل كان يجلس قبالتنـا فوق مكـان مرتفع · يراقب سير العمل · يمنعنا من التحدث مع زملائنا · زملاؤنا كانوا في الغالب من أبنـاء

المخيم الذين يشتغلون في العطلة الصيفية الى أن يحين موعد المدارس • هناك بعض النساء المسنات• ولكن لا يوجد سوى صبيـــة واحدة • مـــا أكثر الممنوعات • ممنوع أن تتكلم مع جارك • ممنوع أن تذهب لتبول أكثر من مرة في النهار • ممنوع أن تلوك شيئا في فمك • ممنوع أن تدس واحدة من قطع الحلوى ، تلك القطع اللذيذة ذات الملمس الطري ورائحة ماء الزهر التي تنبعث منهــا كلما شممتها • ممنوع أن تدس واحدة في جيبك لتأكلها في وقت ما أو لتدسها في فم أخيك الأصغر •

مدير المعمل يظل جالسا مكانه • يأتيه الشاي • يأتيه الأكل • تأتيــه النرجيلة • يأتيــه ماســح الأحذية • يأتيه البطيخ والعنب • يأتيــه باعــة الجملة • يأتيه باعة المفرق • يكتب وصولات • يستلم نقودا • يسجل كمبيالات •

مدير المعمــل لا يغيب • يأتي الى تلك الدكة

الخشبية العالية قبلنا . ينصرف بعدنا . يعدنا واحدا واحدا . يخصم يومية من يتأخر . يطرد من يتأخر أكثر من يومين . يتراكم على أبوابه أولاد المخيم الذين ينتظرون فرصة العمل . يفتشنا بنظراته ، وذلك الذي يرتجف أو يصفر وجهه يتعرض الى تفتيش ، فاذا وجد قطعة حلوى في ثيابه يصفعه ، ويخصم يوميته ، وينقله من تعبئة العلب الى العمل أمام الفرن الذي فيه تصنع المعجنات . العمل أمام الفرن لا يقوى عليه في ذلك الصيف الذي له مذاق الفلفل الأحمر الا الذين تخرجوا من دورة الكمال الجسماني . لذلك فان النحفاء من أمثالي ، الذين لا يأكلون سوى الباذنجان المطبوخ بالبندورة ، لا يستطيعون أن يصمدوا أكثر من ساعات ، يسقطون بعدها مغمى عليهم ثم لا يعودون ...

في هذا المعمل الذي يطفح بالقسوة ، خفق قلبي

برهافة مثل جناح زغلول يشرع في الطيران لأول مرة ·

□ □

ذات يوم تغدينا معـا فترة الظهيرة · وضعت زوادتها على زوادتي · كنا نعمل جنبا الى جنب · وعندما حانت فرصة الغداء ، جلست في الركن حاملا زوادتي ، فجاءت تحمل زوادتها ·· بيض مسلوق وبصل وعلبة سردين وصرة ملح وأقراص فلافل ناشفة · أكلنا وشربنا الماء · وتسنى لنا أن نحكي شيئا عن آلام الظهر التي نعاني منها بسبب انكبابنا طوال النهار على تعبئة علب الراحة · وتسنى لنا أيضا أن نحكي شيئـا أو بعض الشيء عن ذلك الرجل الثور الذي لا يتركنا نعود الى بيوتنا الا بعد أن تعتم الدنيا ، ويمشي الوجع في بطات أرجلنا · ولا تدوم هذه اللحظات كثيرا ، فيعلن حارس المعمل انتهاء فرصة الغداء واستئناف العمل · فنعود لتعبئة علب الحلوى ، ونحكي دون أن ننظر الى بعضنـا

البعض • وبين ساعة وأخرى ننظر عبر النافذة الى ظل الشمس المائلة الى الغروب •• وننتظر بلهفة لحظة الانصراف •

بعد ذلك الغداء صار الفتى الصغير المتزمل في ثيابي يمشي جنبا الى جنب مع تلك المرأة الوردة التي تكبره بسنوات حتى نهاية الشارع ، حيث تتشعب الطريق ، وفي الليل تستيقظ في قلب ذلك الطفل ورود الحنون ، وتنطلق من صدره العصافير •

□ □

ذات مرة غاب ذلك الرجل الثور الذي يجلس على مكان مرتفع ويراقبنا • تأخر عن الحضور على غير عادته • ظل كرسيه فارغا مثل فم مفتوح يوحي بالدهشة •

جاء الحارس وقال لنا : هيا اشتغلوا • لم يكن أحد يأبه للحارس أو يخاف منه فقد ذابت شخصيته

منذ زمن أمام شخصية الرجل الثور • لذلك فقد بدأنا نشتغل ببطء و بلا حماس •

ثم وقف صابر ذلك الشاب الوسيم الذي يعمل معنا في تعبئة الحلوى ، ورفع صوته عاليا بالغناء • حدثت دهشة في البداية ، كأنما صوته قطعة زجاج سقطت من عل وسط دائرة القمع • وبعد حين كان الغناء عذبا • ثم صار الغناء جماعيا •• ثم انفرط العقد • أكلنا قطع الراحة وبدون خوف • ثم قفزنا فوق الأكياس ، وعندما أدار أحدهم على ثيابي شيئا من السكر المطحون ، هجمت انتصار وأخذت تلحس ما علق من السكر فوق ثيابي •

ثم ان الشخص نفسه أدار على ثيابها المزيد من السكر المطحون ، فهجمت وطوقتها بعفوية وأخذت ألحس ما علق بثيابها • كان هناك فرح وكنا مثل الأطفال العراة الذين يستحمون في بركة ماء • لهونا ولهونا وأكلنا مبكرا • وانصرفنا قبل أن يقول

لنا ، انصرفوا • وعند نهاية الشارع ، عند تفرع الطريق صافحتني لأول مرة • وعند ذلك كان يتعين علي أن أقف على أصابعي لكي أبدو قريبا من قامتها الفارعة •

□ □

في الصباح التالي انظرتها •

كنت أحمل لها خبرا سارا •

جلست على حجر في الطريق أنتظر بلهفة •

جاءت بعد طول انتظار • أقبلت وهي تقضم تفاحة • مدت يدها وصافحتني • أحسست أنني أمسك بعصفور يتنفس في يدي •

ـ لماذا تجلس هنا •

قلت لها : كنت أنتظرك •• أريد أن أقول لك خبرا سارا •

سألت باهتمام : ـ ماذا •

أجبتها : ـ سيحدث في بيتنا عرس •

ـ عرس من ؟

سألت برشاقة ، وبرشاقة كانت تمشي •

ـ واحدة من قريبات أمي • حفلة عرسها ستكون في بيتنا •

ـ وهل يكون هناك عرس وغناء وطبلة ورقص •

هززت رأسي ، فانتشر الفرح في وجهها •

ـ هل العروس جميلة ؟ ـ هل لها في فمها سن ذهبية ؟ ـ هل اشترت أساور وخواتم ؟ ـ هل اشترت فستانا أبيض ؟ ـ هل اشترت أدوات للزينة؟ هل اشترت دبوسا لشعرها ؟ هل ستسكن لوحدها أم ستسكن مع أهل زوجها ؟

ظلت تسال طوال الطريق • وكنت أجد أجوبة. أتخيل ورودا تتفتح ، وحقولا تمرح فيها السنابل ، وعشرات الخيول البرية تركض في الخلاء ، وقمرا نظيفا يهبط من مكانه ويمشي على قدمين •

وأتخيل أجراس زهر الرمان الحمراء تنبت في شعر الصبايا ، ويصبغ التوت شفاهن بلون قرمزي •

كانت تسأل ، وكنت أفرح وأفرح •

ولليوم الثاني كان الرجل الثور يغيب عن مكانه •

كان رفاقنا في المعمل يجلسون في حلقات ، وقد انضم اليهم أولئك الذين كانوا يشغلون الفرن ويعملون في طبخ المعجنات • لم يدر أحد ماذا يحدث • الحارس الذي ينام في المعمل يفتح الباب ويغلق الباب ولا يعرف شيئا •

سرت شائعات أن الرجل الثور قد مات ·

كلمة الموت جعلت وجه انتصار يعبس ، فقال صابر الفتى الوسيم الذي يملك صوتا أحلى من مسحوق السكر ·

ـ اذا كان قد مات ، فليأت من يدفع لنا حقوقنا ·

جلسنا في ركن بين الأكياس ، وتركنا الرجال الكبار يتناقشون ·

وبدأت أحكي من جديد وأبالغ في وصف حفلة العرس التي ستقام في منزلنا ، وأحكي عن شراب الزبيب والماورد والليموناضة ، وعن حلوى الملبس على لوز والحامض حلو والكعكبان ·

ثم قلت لها : هل ستحضرين ·

عبست · ثم نظرت الى ثيابها والى يديها ·

ازدادت عبوسا كأنما أفزعتها تلك الفكرة أكثر مما أفزعها الموت • وفجأة وقفت ، مثل مهرة نزقة ، وتركتني وذهبت هناك ••• حيث الكبار يتناقشون ويحكون عن حقوقهم •

كان صابر قد شق كيسا من السكر ، وأخذ يملأ حفنتيه ويديرهما في قراطيس من ورق ، ويوزع على العمال ويهتف :

ـ اشربوا هذه الليلة شايا محلى بالسكر •• اصنعوا لأولادكم عصيدة بمعقود القطر •

وقد دارت المهرة النزقة عدة دورات ثم عادت وسألتني : كيف يمكن للمرء أن يستدل على بيتكم •

بدأت أصف لها الطريق ، وكانت ساهمة كأنما تنظر لنفسها في مرآة وتسوي شعرها •

[] []

فتحت أمي الخزانة ، وأعطتني القميص الابيض والبنطلون الكحلي الطويل · كانـت منذ الصباح الباكر قد كنست الغرفتين المتلاصقتين ، وكنسـت حوش الدار ، وسقـت شجرة العطرة وأحـواض النعنع · وأخرجت من الصندوق العتيق (صندوق عرسها) الشراشف وأغطيـة المساند والطاولة ، وهي أشياء عزيزة تحافظ عليها ولا تخرجها الا في الأعياد · ومسحت أمي زجاج النوافذ ، وأعـدت عشاء يتكون مـن الرز واللحـم المسلوق احتفـاء بالعروس وأمها اللتين تمتان بصلة ما اليها ·

وبعد العصر بدأت الزغاريد ، وبدأت العروس في احدى الغرفتين تغير ملابسها ، كما بدأت بنات الحي يصلن وقد لبسن أفضل ما لديهن من ثياب ·

كانت مهمتي هي الوقوف أمام حوش الدار لمنع الأولاد من الدخول والاندساس بين النسوة ·

أخذت المرأة السمينة (من الحارة التحتا) تنقر

على الطبلة بايقاع عال معلنة بدء الغناء والرقص والزغاريد ·

وأطار ذلك صواب الأطفال الذين كنت أمنعهم من الدخول ، فتسلقوا الحائط · تسلقوا أكتاف بعضهم البعض ، تسلقوا حبال الهواء ليتمكنوا من القاء نظرة على ما يحدث في الداخل · ورغم مهمتي الشاقة ، ظللت أحدق كلما سنحت الفرصة بالطريق الترابية التي تأتي من المدينة وتصب أمام بيتنا · وعندما تعب الأولاد من القفز والنطنطة قـرروا الكف عن ذلك ، والبحث عن لعبة جديدة ، فتحلقوا حول شجرة تين شاخت منذ زمن فسقطت أوراقهـا وبراعمها ، وسقط معظم أغصانها · ولم يبق منها سوى هيكل يابس ، تنشر عليه النساء في الأيـام المشمسة الطراريح واللحف والحصر الممزقة ·

□ □

جاءت أخيرا يرافقها رجل مسن يلبس على رأسه طاقية (بيريه) زرقاء وبدلة كحلية قديمة ، ويوحي مظهره بأنه من أولئك الأرمن الذين يبيعون ساندويشات البسطرمة والسجق ٠

كانت تلبس ثوبا أحمر وتضع على كتفيها شالا من الصوف ، وتصبغ شفتيها بالأحمر ، وتبدو مهيأة للسهر والفرح ٠ قالت : انه أبي أوصلني وسيعود ليصطحبني الى البيت ٠ فرفع الرجل طاقيته وانحنى ٠ وفي الوقت نفسه عبرت الباب ودخلت بالفة كما لو أنها تعرف كل من في البيت ٠ ركضت الى أمي وأبلغتها عن وصول مدعوتي ، فقامت من بين النساء وأقبلت عليها ، وأمسكت بذراعها وأوجدت لها مكانا بالقرب من العروس ٠

وعندما عدت الى موقعي في الخارج ، كان الرجل العجوز يسير عائدا على مهل يحمل سيجارة بيد ، ويدس الأخرى بجيبه ، ويبدو كما لو أنه يدندن بلحن أو بأغنية ٠

ولأمر ما خطر ببالي أن ثمة وجه شبه بين شجرة التين المتشبثة بالبقاء وبين هذا الرجل •

□ □

اكتمل عدد المدعويين فأغلقت الباب وبصعوبة تسللت من بين النسوة ، وصرت على العتبة وجها لوجه أمام انتصار التي ابتسمت لي وكانت تحت تأثير تلك العاصفة من الفرح التي تهب في هـذه اللحظات •

هل كبر الطفل سنوات كبيرة وارتفعت قامته اذ ذاك ؟

ظلـت المرأة السميـنـة التي صبغـت وجههـا بالمساحيق وبشكل فاقع تنقر على الطبلة بشراسة •

وفي الحلبة ، كان بعض البنات يرقصن •واحدة رفيعة تتأود بعكس النغمة • وثانية حامل في الشهور الأولى ترقص بتثاقل وحذر • وثالثة صفراء الوجه

وذابلة ، ترقص مثل ذبابة انقلبت على ظهرها تئز وتئز بلا فائدة ٠

وتنتقل أم العروس بين المدعوات ، وتدس بيد واحدة ، جاءت منذ قليل صرة حلوى ، وتحكي مع امرأة ثانية وتبالغ في الترحيب ، وتتمنى لجميع الحبايب البخت الأبيض ٠

وتوقفت المرأة السمينة فجأة عن النقر ، وطالبت بتسخين الطبلة على ضوء المصباح لكي يشتد الجلد ويصبح أكثر تجاوبا ٠ وبعد أن تم ذلك ، استعادت الطبلة مرة أخرى ، وبدأت أصابعها الشيطانية تدق ايقاعا صاخبا يمكن أن ترقص عليه أكثر العفاريت جنونا ٠ واقتربت أم العروس من انتصار وسحبتها الى حلبة الرقص ٠

وقفت وسط الحلبة خجلى ، فاحتقن وجهي وما هي الا لحظات حتى ألقت الشال جانبا وبدأت ترقص ، فخرجت من الحلبة أولا البنت الرفيعة ،

وتبعتها المرأة الحامل • أما المرأة الذابة فقد شدتها احداهن من ذيل فستانها •

ظلت انتصار في الحلبة وحيدة • وكنت أحدق بها غير مصدق ، وأنتقل الى الوجوه لأرى كيف ينظرون الى قمري ووردتي • وبدأت الأكف تصفق، وكان ذلك ايذانا بالاعتراف لها بالمهارة • تحرك قدميها بخفة • تحرك خصرها • تجدل يداها ضفائر الهواء • تثب كما لو كانت لبوة وتتراجع كما لو تحولت الى نسمة • تدور وتدور مثل زوبعة ، ثم تتباطأ وتصبح فراشة • تصبح سلسة وأنيسة • تصبح حمامة زاجلة •

وتعاود الهجوم والوثوب والشراسة ، ويرتفع ايقاع الطبلة بضراوة ، وتسخن الأكف ، وتصبح الدماء حارة ، وتصعد من هجومها وشراستها مثل موجة عاتية ، ثم فجأة تنحسر وتتراجع •• تتلاشى كالرغوة ، ويصبح لرقصها طعم الدمع • تتوقف وسط الحلبة • تواصل المرأة السمينة النقر على

الطبلة بضراوة شديـدة • وتأتـي أم العروس ، تستحلف انتصار برقصة أخرى • وعند ذلك تعاود انتصار الرقص وهي ترسم على وجهها تكشيرة دون أن تنظر الى أحد • تدق قدماها الأرض بقسوة ، وتهز جسدها بعنف ليس له مثيل ، كأنما تطرد منه القهر • كأنما تلفظ منه الصداء • ثم ترفع رأسها عاليا • تشمخ • تتسلق جبال الصخب والوهم • ترعى خراف الغيوم • ثم تنتفض • تنتفض بعنف • كأنما ذهبت السكرة وعادت الفكرة • فتبتسم اذ ذاك • تبتسم رغما عنها ، وتهبط الى أن تصبح ناعمة كقرارة الموجة • تتذكر أن عليها أن تبسط الحاضرين ، فتعاود الحركة مع الايقاع • تتواصل وتمد جسورا نحو البنـات الشاحبات ، والنسـاء السمينات ، والعيون التي تفرح مرة واحـدة في العـام •

وتدور وتدور ثم تتوقف •

وتاتي مرة أخرى أم العروس ، وتستحلفها برقصة ثالثة • وهكذا ••••

□ □

آخر السهرة صرخت المرأة الحامل التي كانت ترقص معلنة أن اسوارتها الذهبية قد ضاعت • ثم صعدت صراخها وغضبها ، فشتمت ودعت بالكسر على اليد التي سرقتها من الحقيبة ، وأخذت تولول• اغتمت أم العروس واغتمت أمي ، وبدأ جدل بين النساء • تحول الفرح الى صمت • ثم الى حزن •

وأخذت المرأة الحامل تتهم عشر نساء في وقت واحد • واذ ذاك ، اقترحت ام العروس ـ حفاظا على سمعتها وسمعة ابنتها وسمعة أصحاب البيت ـ تفتيش جميع المدعوات •

ولم تعترض أي منهن على هذا الاجراء المهين .

وهكذا تعين على كل امرأة أن تخضع لتفتيش المرأة الحامل ٠

كنت أبتلع المهانــة قرصا قرصـــا ، وكلما تم تفتيش واحدة كنت أشعر كما لو أن أحدا يكشف عن عورتي ٠

وعندما أتى دور انتصار خطر لي أن أندفــع وأطرح المرأة الحامل أرضا وأدوس على رأسها ، ولكني لم أفعل ٠ بدأت عملية التفتيش ٠ مــدت يديها الى الصدر ثم الى الخصر ثم طلبت منها أن تخلع الحذاء ٠

وفجأة أمسكت المرأة الحامل بالحقيبة وصرخت بصوت عال :

ـ وجدتها ٠٠ مال الحلال لا يضيع ٠

ثم أمسكت انتصار من شعرها وواصلت الصراخ:

ـ هذه المرأة حرامية سراقة ٠٠ لقد جاءت من خارج مخيمنا هذه النورية لكي تسرق أساورنا ٠٠ انظروا ٠٠ اسوارتي في حقيبتها ٠

وأحاط النساء بانتصار ينظرن الى الاسوارة بدهشة ٠ قالت انتصار بضعف : انها اسوارتي ٠٠ اشتريتها من عرق جبيني ٠

ثم نظرت الي ٠٠ أحسست بالخوف ٠ وهززت رأسي أعلن لها أنني أصدقها ٠ وكنت أشعر أنهم يقتلعون شعري ٠ جاءت أم العروس ، وفكت شعر انتصار من يد المرأة الحامل ، وسحبتها الى الخارج٠

وكانت انتصار وسط الضجيج تقول بيأس :

ـ انها اسوارتي ٠٠ لقد اشتريتها من عرق جبيني ٠ الا أن أم العروس دفعتها الى الخارج وأغلقت البوابة وعادت وهي تقول :

ـ الحمد لله ٠٠ لقد ظهرت السرقة والحمد لله

ان الحرامية ليست منا • وقبلت المرأة الحامل من خديها ، وأعادتها الى الكرسي الذي كانت تجلس عليه • وأحضرت لهـا صرة ثانية من الحلـوى ، وحاولت أن تعيد الجو الى ما كانت عليه • وطلبت من أمي أن تطلق زغرودة •

وعندما فعلت أمي ذلك كانت زغرودتها شاحبة ومجروحة •

وفي الخارج ، سارت انتصار خلف ذلك الرجل العجوز الذي كان ينتظرها بالقرب من شجرة التين العجفاء •• ثم ابتلعتهما العتمة •

□ □

جاء العريس وأخذ عروسته • انصرفت النساء وذهبت أم العروس الى بيتها دون أن تتعشى الرز واللحم المسلوق • ظلت الكراسي الفارغة والنفايات تملأ الغرفة • وكان الشال الصوفي الأبيض ملقى

على أحد الكراسي مثل ورقة سقطت من وردة بيضاء . وقد تركت أمي كل شيء على حاله حتى الصباح .

وقبل أن نأوي الى فراشنا في الغرفة الثانية ، شاهدت بعيني أمي دمعتين (أتخيلهما الآن وبعد تلك السنوات الطويلة، أتخيلهما بلون الكريستال) . وقالت كأنما تخاطب نفسها : قطيعة تقطعنا .. لا نفرح ولا يليق بنا الفرح .

□ □

عند الفجر . ربما قبل الآذان . طرق باب بيتنا بشدة . استيقظت أمي (أما أنا فقد كنت عاجزا عن الاغفاء) . لبست أمي غطاء رأسها وقامت ففتحت الباب . دخلت المرأة الحامل . المرأة الكريهة . استقبلتها أمي بتحفظ ووجوم . ثم دعتها الى الدخول . جلست المرأة الحامل أمامنا مطرقة . منكسرة . ثم انفجرت بالبكاء .

وعند ذلك تخلت أمي عن وجومها ٠

قالت المرأة وهي ما تزال تبكي :

ـ لقد ظلمت تلك الفتاة ليلة أمس ، فعندما عدت الى البيت وجدت اسوارتي في درج الخزانة ٠

توقفت لحظة وهي تنشج وتابعت :

ـ أنظري يا خالة ٠٠ هذه اسوارتي وهذه اسوارتها ٠٠ انهما متشابهتان ٠٠ أليس كذلك ؟

فأطرقت أمي ، وارتسم على وجهها حزن جليل ٠

لعلها كانت تحزن للمرأتين في وقت واحد ٠

نظرت المرأة الحامل الي وقالت :

ـ هذه اسوارة الفتاة التي تشتغل معك في المعمل أعدها اليها وقل لها انني مستعدة أن أقبل يديها ورجليها ٠٠ انني أطلب منها المغفرة ٠٠ أنا امرأة

حامل ولا ستطيع أن أتحمل دعوة مظلوم .

طيبت أمي خاطرها ، وصنعت لها فنجان قهوة. وكانت الاسوارة أمامي على الفراش مثل قنبلة ستنفجر بين لحظة وأخرى .

لماذا صمتت انتصار .. لماذا لم تهد الجبال وتزلزل أركان الدنيا ..

□ □

في الصباح التالي . الصباح الأخير . صباح اللحظات الصعبة ، من النحاس أو الصلب ، المجدولة كحلقات الجنزير .

في الصباح الأخير حملت زوادتي والشال الأبيض وتلك الاسوارة التي لا تليق الا بمعصم امرأة من فصيلة الورد . ومشيت وأنا أحاذر ألا انقسم الى نصفين . ووصلت باب المعمل .

كان الباب مغلقا على غير عادة • طرقت الباب مرة أو مرتين • فتح الباب وأطل رجل لا أعرفه ، ووضح من الطريقة التي تكلم بها معي انه حارس جديد • كانت أصابعه كبيرة مثل أظلاف البقرة • ماذا تريد • أنا أعمل هنا • انتظر • انتظرت • أحسست أن شيئا يجري في الداخل • لا أدري لماذا شعرت أنهم يذبحون عجلا وينتظرون آن يفرغوا من سلخه قبل أن يفتحوا لي • عندما فتح الباب وأدخلني كان المنظر يبعث على الرهبة • الحارس يمسك بيده عصا خيزران • الحارس الآخر • الحارس الثالث •• كلهم جدد •

العمال يقفون جميعا مثلما نفعل في المدرسة لدى دخول المعلم • وهناك عاليا •• عاليا يقف الرجل الثور ، ويحمل قضيبا من الحديد •

عندما دخلت تحولت الأنظار الي • لم يخاطبني أحد • لم يلتفت الرجل الثور • الحارس ـ أحد الحرس الجدد ـ رمقني بنظرة صارمة (ربما خطر

له أنني لست ندا له) • مشيت خطوات ووقفت في مكاني المخصص •• بجانبها تماما • لم أجرؤ على النظر اليها • لم تكلمني • ظل الصمت مرعبا • العمال يقفون • الرجل الثور يتأهب • أين كان • متى عاد وماذا يحدث ؟

قال الرجل الثور : لا أحد يريد أن يعترف ؟

ماذا كان يريد أن يعرف • وماذا تعني هذه المحاكمة ؟

وعند ذلك نادى على الحارس القديم ، ذلك الذي فقد شخصيته منذ زمن ولم يعد يأبه به أحد • كان الرجل الثور يسأله عمن فعل ذلك بأكياس السكر • وقف الحارس الذي كان يظن نفسه مهما • وقف يرتجف • أدرت وجهي ونظرت الى انتصار • كان وجهها صامتا • فجا • جامدا • فقد كل ما كان يتمتع به ليلة أمس من حيوية • صرخ الرجل الثور بصوت يشي بالجنون : أيها الخائن • ثم رفع

قضيب الحديد عاليا وأهوى به على رأس الحارس .. على أم رأسه ، فترنح . زاغت عيناه . زاغت عيوننا . ثم سقط .

□ □

العرق الغزير . العروق الحمراء والخضراء . الدم الذي يفور . القلب الذي ينط في الصدر كما تنط الضفادع . الصدر الذي يعلو ويهبط . كل الاحتمالات واردة بما فيها استعمال الأسنان .

وفجأة تقدم صابر بضع خطوات . صابر الوسيم ، الطري كعروق النعنع . تقدم بوجهه الشاحب ، وشعره الغزير العالي ، وترك زوادته وراءه .

مشى . وقف . مشى . هل ارتجف ؟

وصرخ به الرجل الثور الذي ما زال يفقد السيطرة :

اذن أنت الذي فعل ذلك يا ابن الكلبة .

كيف رفع الرجل الثور القضيب عاليا • كيف أهوى به على الكتف الأيمن • كيف صدرت الآي المكتومة • كيف ترنح وترنح صابر •• ثم سقط •

واذ ذاك • ألقت انتصار بالكيس الذي كانت تضع فيه الزوادة أو لعله سقط من يدها • كنت أحدق بانفجارها • هزت نفسها بعنف ، وارتجف وجهها غضبا • اهتز أنفها : اهتز صدرها •انتثرت كأنما تحول نفسها الى شظايا • ثم تجمعت • كأنما تضم زرد غضبها الى بعضه البعض • تقدمت خطوة، فخطوة ، فثالثة ••

وصرخت فجأة • صرخ القهر والوجع النائم في قلب الحجارة • كيف ينطق الجماد ؟

وأنشبت أظافرها رغرزتها في وجهه •

توجع الرجل الثور • فوجىء • صاح • هجم عدد من الحرس الجدد وشدوها الى الخلف • شدوا شعرها الطويل، فبصقت في وجوههم بينما كان الحقد

يحول وجهها الى حجارة من الصوان تهبط من عل وتتصادم ببعضها البعض ·

شدها الحرس من شعرها وأبعدوها ·

بصقت وبصقت · وشتمتهم بكل الشتائم التي يحفظها أهاليَ بيوت التنك · وظل صوتها يقترب وهو يبتعد ، فتسللت من بين الصفوف وانطلقت خلفها · ألقوا بها خارج الباب النحاسي ·

□ □

مشينا معا · كانت صامتة · بكت · ثم صمتت · ظل شعرها منفوشا · ظلت عيناها تجحظان · لم أجرؤ على التحدث · لم أجرؤ على أن أتقدمها ·

لماذا صمتت انتصار أمس · لماذا لم تهد الجبال ·

لماذا لم تزلزل الدنيا ؟

عند مفترق الطريق · عند التشعب وقفت تسوي شعرها ، ثم نظرت الي كأنما تريد أن تقول بأنه

يتعين علينا أن نفترق ·

امتلأ الفضاء كله بالفراغ ، وأصبح الكـون صغيرا · ناولتهـا الاسوارة والشـال الأبيض · وضعت الاسوارة بيدها دون أن تظهر دهشة · ثم ألقت بالشال على كتفيها ، ومدت لي يدها ، (ذلك العصفور الساخن الذي ينبض في كفي) ثم سحبتها، وأدارت لي ظهرها ·· وراحت ·

وعندما عدت الى المخيم ، في ذلك الصباح الأخير، الصباح المصنوع من النحاس ، كان النـاس قـد انتشروا بحثا عن الرزق ·

ولم يكن سوى الأطفال والأرامل يتشمسون أمام عتبات البيوت ·

وفي الساحة الصغيرة ، كانت شجرة التين اليابسة ما تزال تتشبث بالبقاء ، وكانت امرأة مسنة تنشر على أغصانها التي تشبه القرون غيارات طفـل رضيـع ·

ملحق

رسائل من مسافر

الى المرأة الوردة التي لم يقابلها بعد

الرسالة الأولى

ـ من فندق في روما ـ

رحلتي لا تنتهي ..

من مطار الى مطار .

أكلت الوجبات الباردة ، وشاهدت وجوها من كل الأجناس ، اكتشفت الوجوه وسمعت قصصا لا تحصى .

حكيت مع امرأة لا تفهم لغتي في احدى محطات الترانزيت واستطعنا أن نتفاهم بحركات الأصابع

وتعابير العيون وعزف لي متشرد مقطوعة على أحد الأرصفة ·

وغمزت لي بعينها امرأة تفوح منها رائحة الكحول وعلى مائدة العشاء في المطعم انضممت الى آكلي المعكرونة وكنت أحملك معي مثلما تحمل الرياح رائحة الياسمين ·

وعبرت بك فوق غيوم البحر المتوسط وتوقفنا معا في احدى محطات الترانزيت ·
وشربنا من كأس واحد

عصير الأناناس ·

وفي روما شاهدنا القصور والمتاحف
وضعنا في زحام الغربة وفي ساحة فينيسيا ·
واكتشفنا في المتاحف مايكل انجو ودافنشي
ومررنا أمام مخلوقات دانتي ·
وعندما مشيت وحدي فوق تلك الساحة المبلطة
بين تماثيل الرومان وآلهتهم ·

وعربات الخيول التي كانوا يغزون بها الشمس .
وبين تماثيل وأجساد النساء المنحوتة من البرونز والرخام
كنت أمشي وأتسكع مثل الصعاليك .

وأفكر كيف أقدمك أميرة الى البلاط الروماني
وأشرب نخبك النبيذ .

□ □

ليس لدي سوى الكلمات
الكلمات العذبة والكلمات المرة
الكلمات اليابسة التي لا تجري في حروفها العروق
أو تلك الحروف الخجلى محمرة الخدين .
ليس للكلمات حياة داخلية
لذا فانني لا أستطيع أن أعيش مع الكلمات تجربة انسانية
لا أستطيع أن ألمس دفء المشاعر

عندما يلتصق جسد بجسد
وتتعانق الأحزان ، ويرحل الصقيع
ويتوحد اثنان على فراش واحد
تتعانق تجربة الفنان بقطعة الرخام
ويولد تكوين فني ...

□ □

ينتابني هذا الصباح فرح أزرق
مثل طيور السنونو أشعر برغبة للاندفاع
أو الرقص على طريقة زوربا
ومثل ضاربي الطبول في افريقيا
أشعر بالموسيقى تدق جدران فؤادي
يتسلل ايقاعك الى رئتي
مثلما يتسلل العنف الى دقات قلب راقصة
اسبانية تتوهج بالفلمنكو .

□ □

آن لنا أن نتفجر أو نتفجر أو نتفجر

أرى جسدا يغسل أحزاني
يتوهج دفئا في شرياني ‥ في أوردتي
بل أغسل أحزانك ‥
بل تغمرنا أمواج وحشية
تصهل مثل الرعد
يتفتح في أعماقي زهر الليمون
وأحب العشق
وأحلم بالتكوين
وبالخلق
وبالابداع

□ □

يرحل فرحي
وأظل وحيدا
ألصق وجهي بالنافذة الغربية
أتنفس فوق زجاج بارد
ما أصعب أن يهزم هذي اللحظة رجل مثلي
في ليلة شتائية

ينظر عبر زجاج الشرفة الى السفن
الراسية في الميناء .
ما أقسى أن تنعكس أضواء النيون
الصفراء على وجهي
أظل وحيدا يهرب مني ظلي
تهرب مني الأشياء وعناصرها
يهرب جوهرها .
اني وسط هذا العالم الصعب
المتمرس في الانفصال عن الانسان
أعلن وجعي
أعلن اني مهزوم
مجـروح
أرتجف من البرد

الرسالة الثانية

ـ من فندق في برلين الشرقية ـ

الشوارع متعددة الجنسيات
والانسانية من فصيلة واحدة
وفي برلين الديمقراطيـــة كل الأشيـــاء تنتمي الى
فصيلة الدفء

حيث رائحة الطهر غير المعلب
والنظافة التي لا تلبس القفاز الحديدي
هنا مدينة الاطفال والاطفال والاطفال
حيث الفرح يوحد كل الأعمار ·
في المقهى القريب من بوابة برلين
شربت (الموكا) التي تشبه لون الزبيب

وتشبه لون عينيك عن قرب
في برلين كنت أشم رائحتك هنا رغم المسافات
فتتوحد في قلبي آسيا وأوروبا
وتندمج القارات وتتبادل الأنخاب
وتستيقظ من سباتها مملكة الماء
وتصحو كائنات مملكة الليل ٠

□ □

في المطعم الشعبي قرب النهر الذي لم أتمكن من حفظ اسمه

في مطعم الطاولات الخشبية العتيقة
حيث حفر العشاق أسماءهم
بقي مكان صغير ٠٠ صغير ٠٠
تركه عشاق برلين لشرقي مثلي
ظل قرونا يكتب اسم حبيبته على الماء
أو على الرمال المتنقلة في الصحراء العربية ٠
فكتبت اسمك على الخشب باصبعي
وتصفحتك في خيالي مثلما أتصفح الجرائد الصباحية

فهل مثل السيجارة الأولى في بداية النهار
أصبحت عادة من عاداتي ؟

□ □

في كل زاوية تمثال ونافورة ماء
ورائحتك حارة في أنفي
ووجه الشبه كبير بين رائحة الخبز ورائحة شعرك .
الخبز الأسمر المصنوع من الشوفان
الشوفان الذي رضع المطر حتى بلغ أشده
فلما بلغ أشده تحول الى (كريستال) في
عيون أطفال دريسدن وفايمر .

□ □

في دريسدن كانت عظام الملك السكسوني
قد تحولت منذ قرون الى تراب .
ولكن الرسامين والنحاتين ظلوا أحياء
خُلع السكسوني الأول والثاني والعاشر

وعاش رامبرانت ورافائيل وجويا
وفي القاعة الواسعة ذات المساحات الكبيرة
كان شاب أممي يحتضن حبيبته
ويحدقان معا في لوحة (المادونا)
ها هي دريسدن التي دمرتها الحرب العالمية
تعيش من جديد وتشرب النبيذ الأبيض والأحمر
وتطعم فلاحيها المقانق والماش ـ روم
وتفتح نوافذها لتوماس مان وستيفان ريفاريج
وبرتولت بريشت .

وتطلق من أعماقها عشرات النوافير
فتغسلني من الداخل وتعطيني شيئا من نبيذها
وهذا المساء شربت كأسا من النبيذ
وأحسست بأن علي أن أغازلك بجرأة
أغازلك حتى يصبح لخديك
لون وردة الحنون التي نبتت في أعماق شاب
من أصول فلاحية مثلي .
أمام لوحات رامبرانت
ذات الألوان الداكنة والوجوه التي تسكنها الدهشة .

كان رامبرانت يبتسم ويرفع كأسه عاليا
أحسست بحاجة الى أن تكوني في بؤبؤ عيني
وأن يكون لك طعم الشمبانيا السلسة ·

□ □

مع المتاحف والحجارة التي تعبق برائحة التاريخ
وقصور الدوقات التي أصبحت قصورا للشعب
ومع مياه الأنهار التي تجري ولا مستقر لها
كنت أمشي في دريسدن
وكنت كالأيقونة على صدري
وكان هتافك يصلني مثل غناء العصافير في حديقة
غوتـــه

□ □

لا أحد يصطاد الأرانب البرية في حديقة غوته
والمياه تتساقط من عل وتندمج في النهر العظيم
ها هي روح غوته ترفرف فوق ذوائب الأشجار

غوته الفنان
وغوته النزق الذي يسوق الحياة كما يسوق حصانه
فيصحو في الصباح الباكر ويخلع ثيابه
ويسبح في النهر كما ولدته أمه ·
هنا في فايمر ·· في مدينة غوته ومدينة شيلر
تأتي عبر البراري رائحة الفحم الحجري
من القطارات أو من المناجم
وتختلط برائحة التبغ التي تصعد من غليون
رجل من فايمر ·
فيمشي في عروق المدينة عصير الكبرياء
وتهبطين من احدى لوحات متحف فايمر
وتتأبطين ذراعي كما لم تتأبطه امرأة من قبل
نمشي على رؤوس أصابعنا أمام منزل فرانز ليست
نستمع الى عزف الأرغون الذي تطفح به الأرواح
ونقرص بائعة التفاح الطفلة من خديها
ونتأمل تمثال الكاهن هيردر الذي قدم شيئا
للانسانية

ونلقي بعض الفنكات في نافورة بلفادير .

[] []

كبير هذه الليلة فرحي
كبير مثل البحيرات والأدغال وأغاني الفلاحين
فلتذهب اليك هذه الليلة الأيائل والظباء وكل
فصائل الغزلان

يسوقون اليك غزالة حبي
غزالة الأحاسيس المرهفة والقلب الأرعن
لتقترب هذه اللحظة آسيا وتعطي لقلمي دفعة من
عنفوانها

لكي أقصم ظهر الكلمات بالمعاني
وأشحنَ الحروف بما لا تستطيع أن تحمله
لغات الجرمان والرومان والفرس والفراعنة .
فتصبح الحروف ضفة من البحيرة
وتصبح الفواصل سربا من طيور برلين التي تزدحم
بها الساحات .
وأكتب اليك المعلقة الحادية عشرة .
معلقة المشاعر العذرية ومعلقة الأحاسيس الزاجلة .

الرسالة الثالثة

ـ من فندق في صوفيا ـ

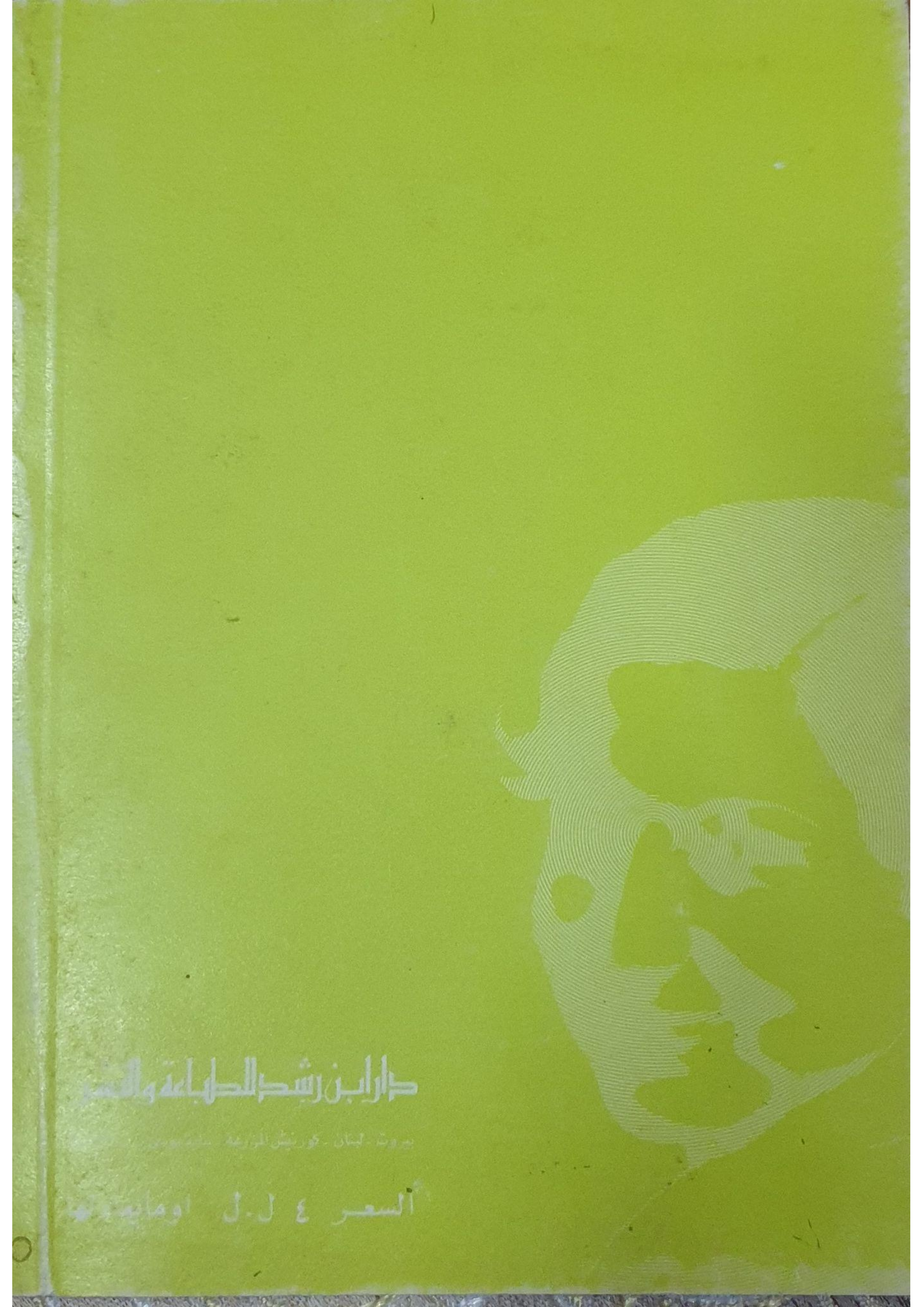
هذه الليلة أشرب نخبك كؤوسا من العطش
ولا يبل عروقي سوى مغامرة رائعة .
فنشتبك أو نلتحم كأننا فِي مبارزة
نسخن أو نفور
كما يفور الشاي الأحمر في السماور
تخلعنا دروعنا وتخلعنا حلقات الزرد
وتسقط عنا كل الحجارة، يسقط الوقار الاصطناعي
وينطحنا كبش المغامرة بقرنيه
فنعلو بالهواء المشبع بالندى
ونصبح فوق كل المسافات

نتعانق بالأذرع والسيقان
مثل حروف الخط الكوفي
ينبجس الورد الأحمر وشقيق النعمان وكوكبة من
نوّار اللوز

تتسع مسام الأجساد البشرية
وتتعانق أحزان الكلمات الكوفيه
نلتصق بكل الدفء ونلغي مسافة ما بين الشطرين
في بيت الشِعر .

نضمخ ليل الروعة بالتفعيلات
وأزرع فيك عطر الروح
كما يزرع شاعر أندلسي اكسير الحياة في موشحه .
أعبر بحر صهيلك بقوة ألف حصان
أركض فوق العشب الأخضر عند مروجك
آكل من شجرة تفاحك
أشرب من دفء رضابك

فدعيني أخرج من جلدي
دعيني أدخل عبر شقوق الأرض
وأشم رائحة الجلد البشري .


دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة
السعر ٤ ل.ل او ما يعادلها